# نصوص تكميلية

## الجاحظ المعلّم الأول للعقل العربيّ

كان الجاحظ من الجانب العلميّ رفيع المنزلة بين علماء عصره، عظيمَ المكانة بين المفكّرين العلميين في زمنه. كان منهاجه في العلم واسعا، وهو في كلّ ما خاض عبابه أخصائي ماهر ومتعمّق بارع، يتناول كلّ ما يقع عليه الحسّ وتنظره العين، وتتشوّف إليه النفس. ولم يكن نظرُه في كلّ ما كان يعاينه النظرَ المجردَ، بل نظر الفلسفة التي صحّحتها التجربةُ وأبرزها الامتحانُ وكشف عن قناعها البرهانُ، لا تراه وهو يفكّر فيجيد التفكيرَ ويبحث فيكشف عن الحقائق إلا داعيا إلى استعمال العقل وتجويد الفكر لأنّه مع عدم الفكرة يكون عدمُ الحكمة وفي التفكير شحذ للأذهان وتنبيه لذوي الغفلة وتحليل لعقدة البلادة وسبب لاعتياد الرويّة، كما يقول الجاحظ. وكان يجري على أسلوب الفلاسفة والمنطقيين والعلماء والمتكلمين في قياسه يقول : "وينظروا في العلة التي اضطرتنا إلى هذا القول، فإنْ كانت صحيحة فالصحيحُ لا يوجب إلا هذا الصحيح."

ولم يقتصر الجاحظ على ذكر البراهين النظرية بل استعان بالشعر والتاريخ وبما يعرف من أحداث وما جرّب هو نفسُه من تجارب ومزج ما تعلّم بما قرأ بما سمع بما شاهد بما جرّب، كما مزج الشعر بعلم أرسطو بطبّ جالينوس ومزج أقوال البلغاء بآراء الطبيعيين والدهريين بالنصرانية واليهودية والمانويين والزرادشتيين وهذا كلّه مزاج عسير الهضم، لولا ما خطر فيه من أسلوب سمح فضفاض، ونفس مرحة.

وكان عقل الجاحظ قويا قلّ أن يقبل الأوهام بل يهزأ بمن يقبلها، يعتمد على التجربة ويبني على ضوئها أحكامه ويشكّ ويدعو إلى الشكّ حتى تثبت النظرية ويستغرب الإنسانُ اليوم من صحة منطقه وسَبْقِه إلى نظرات في منهج البحث لم تعرف إلاّ في العصر الحديث كما أنه سبق إلى اتّجاهات قيِّمة في سيكولوجية الحيوان.

وأساسُ البحث العلمي هو سلطان العقل. وقد استفاد الجاحظ من المعتزلة والنّظّام القول بسلطان العقل، يقول : "أكثرُ الناس سماعا أكثرهم خواطر، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكّرا، وأكثرُهم تفكرا أكثرهم علما، وأكثرهم علما أرجحهم عملا، كما أنّ أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب".

واعتزّ الجاحظ بجودة العقل والمعرفة، ومن ثمّ حذّر من اغترار الإنسان بما أَلِف وبما يعرض لقلبه بادئ الرأي ورأى الناسَ يحتاجون إلى طبيعة ثم إلى معرفة ثم إلى إنصاف بأن لا يعطي نفسه فوق حقها، وأنْ لا يضعها دون مكانها وأنْ يتحفَّظ من شيئين فإنَّ نجاته لا تتمّ إلا بالتحفّظ منهما : أحدهما تهمة الإلف والآخر تهمة السابق إلى القلب.

وبهذا ينادي الجاحظ إلى وجوب تحرّر العالم من المألوف ومن المعرفة الأولى أثناء بحثه ومحاولته الوصول إلى الحقائق ، يقول الجاحظ :" إذا سمعت الرجل يقول "ما ترك الأول للآخر شيئا" فاعلم أنه ما يريد أن يفلح" وهو بهذا يفتح باب التجديد واسعا على مصراعيه أمام أيّ باحث وعالم.

**محمد عبد المنعم خفاجي**. "أبو عثمان الجاحظ"

دار الكتاب اللبناني بيروت ط1. 1973 ص ص 166–168

# طريقة البحث وطلب المعرفة
# أو الشك طريق إلى اليقين

لا يكفي أن نتسلّح بأدوات محكمة بلْ ينبغي أن نحسن استعمالها. وهذا الاستعمال هو الذي سمّاه الجاحظ، بعد أستاذه النّظام، طريقة "الشكّ المُوصِل إلى اليقين"، وهي طريقة تعتمد جملة من القواعد يمكن حصرُها على هذا الشكل :

أ– **عدم قبول الخبر مسلّما وعدم تكذيبه مبدئيّا**. يقول : ولا يعجبني الإقرارُ بهذا الخبر، ولا يعجبني الإنكارُ له.

ب– **معالجة الخبر لمعرفة مواضع الضعف فيه**. **وهذه المعالجة هي التي توصِل إلى اليقين** : "فاعرف مواضعَ الشكّ وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له..." فالعملية الأساسية هي الشكّ والتّشكيك، حتىّ وإنْ كانت النتيجة لا تعدو ما يسمّيه الجاحظ "التوقّف والتثبّت" : "... وتعلّم الشكّ في المشكوكَ فيه تعلُّما. فلوْ لم يكن في ذلك إلاّ تعرُّفُ التوقّف ثم التثبّتُ لكان ذلك ممّا يُحتاج إليه".

ج– **التوقّف والتثبّت دليل على حدود العقل**. **لماذا** لا ينبري الجاحظ للتكذيب المباشر والرفض التام ؟ – لأنّه يعلم حدود العقل، حتّى وإنْ لم يصرّح بذلك. ولا يكفي أن نقول إنّ الجاحظ معتزليّ فنظنّ أنّ له ثقةً مطلقة في العقل.فالعقلُ آلة عجيبة ما وجدت لنفسها وقودا وهذا الوقود هو معارفُنا السابقة ومعلوماتُنا الحاصلة ومراجعنا العاديّة من حواسّ وإرشادات محسوسة الخ...، وعلى هذه يرتكز العقلُ لإبداء حكمه. فطيرانُ البشر، وخروجُه من محيط الأرض قاصدا الكواكب ومخاطبةُ غيره باللاسلكي والتلفزة وغير هذا من الاختراعات والاكتشافات، كلُّ هذا يظهر لنا اليوم "واقعيّا عقليّا" ولعلّه "عقليّ" لأنّه "واقع" قبل كلّ شيء. ولكن، هل كانت الإذاعةُ والتلفزة والصواريخ تظهر "عقليّة" لأهل القرن الماضي؟ فهل كانوا يقبلون منّا خبر الطائرة أو السفينة الفضائية أم كانوا يرفضونه ؟ – الموقف العقليّ المنطقيّ كان يحتّم عليهم أن لا يقبلوا ولا يرفضوا، بل أن يتوقّفوا ويتثبّتوا حتّى يرَوْا بأعينهم أو ببصيرتهم. وهذا موقف الجاحظ : إذا روي له خبرُ طائرٍ يقطع الجبال والصحاري والمسافات الطويلة الشاقة لجلب الدراصينيّ (القرفة) من الهند والصين، فهو يستغرب ولكنّه لا يكذّب :" فأنا، وإنْ كنتُ لا أعرف العلّةَ بعينها، فلست أنكرُ الأمور من هذه الجهة ..." فهناك عِلّة تفسّر سببَ سفر هذا الطير وتحمّله المشاقّ، وما دام لم يعرفها، أي لم يتعلّمها، فهو يعتبر الخبر ممكنا، ولا يصدّقه ولا يرفضه. – على أنّ هناك من الأخبار ما لا يتردّد الجاحظ في دفعه بتاتا كخبر الحيّة ذات الرأسين تتغدّى برأس وتتعشّى برأس.

د– **تصوير هذه الطريقة** : البحث عن مواضع الشكّ والحالات الموجبة للشك في خبر " حيّة بلعنبر" : فهو يُورد الخبر برمّته، دون تدخّل منه في بحر الرواية – ولعلّ في هذا الحياد دعوة لنا إلى إعمال العقل والحكْم بأنفسنا – وفي الفقرة الثانية، يأخذ بيد القارئ فينبّهه إلى مطاعن الخبر – ويكتفي بتسميتها "عجائب" – فيذكر منها ثلاثة : صبر الحيّة على مثل هذه الحرارة – جهل الطائر بفرق ما بيْن الحيّة والعود اليابس – غرابة اهتداء الحيّة إلى مثل هذه الحيلة العجيبة ... ولعلّه يكذّب ولعلّه يصدّق، ودارسُو الجاحظ منقسمون في هذا النصّ. ولعلّ الذي أغراهم بالتصديق قولُه في الختام : "فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحيّاتِ" وليس هذا تصديقا وإنّما هو توقّفُه وتثبّته المعروفان.

مثال آخر من التوقُّف والتثبّت خبرُ ابن أبي العجوز في أنّ الدسّاس تلد : يستغرب الجاحظ أنْ تلد حيّةٌ و لا تبيضُ، ولكنّه لا يكذّب، وبعد مدّة يهتدي إلى العلّة، فيكتشف أنّ " الأفعى تلد وتبيض، وذلك أنّها، إذا طرقت بيضها، تحطّمَ في جوفها فترمي بفراخها أولادا حتّى كأنّها من الحيوان الذي يلد حيوانا مثله" ونحن نعلم اليوم وجودَ الحيوان"الولود – البيوض"(ovo-vivipare)

محمد اليعلاوي. أشتات في اللغة والأدب والنقد
دار الغرب الإسلامي ط1/1992 ص ص 10–11

# بَين الجاحظ وأبي حيّان

... وأسلوب أبي حيان رائع جَزل، يلتزم المزاوجة ولا يلتزم السجعَ، ولا يتفخفخ في الأسلوب على حساب المعنى ولا يتدفق في المعنى وينسى الأسلوبَ، فهو للناشئة خَيرُ معلّم، وللمؤرّخين خير راوٍ. ولئن قالوا عنه : إنه هو الجاحظ الثاني ففي رأيي أنّ الجاحظ، وإنْ كان أكثر تشعّبا، وأكثرَ انطلاقا، فأبو حيّان أجزلُ لفظا وأوسع علما لأنّ الجاحظ كان مسجِّلَ القرن الثاني، وفي القرن الثاني بدأت نشأة العلوم، وأبو حيان مسجِّل القرن الرابع وقد نضجتْ العلومُ، وشتّان بين علم ناشئ وعلم ناضج.

وقد يمتاز الجاحظُ بحسن التَّصوير وحسن العرض والقدرة على خلق شيء من لا شيء. أما أبو حيان فقد كان نحويا، وكان فيلسوفا، وكان أديبا، وكان متصوِّفا. وفي نظري إذا اخترنا نموذجا للناشئين من الأدباء القدامى اخترنا أبا حيّان لكلّ المميزات التي ذكرنا، فالجاحظ يغنّي غناء طريفا جديدا وأبو حيان يغني غناء كلاسيكيا حسب أصول الفن.

بدأ الجاحظ والعلمُ في مستَهَلِّه، فأَعجَبَ الناسَ وأطرفَهم، وجاء أبو حيان والعلمُ على أتمّه فروى لهم ما وصل إليه، وليس من شك في أنّ مجهود العِلم الإسلامي في قرنين ونصف في كل فروع العلم كان مجهودا هائلا نهل منه أبو حيان ولم ينهل منه الجاحظ. فأبو حيّان في الحقيقة يمثّل العلمَ العربي : إلى أين وصل ؟ والجاحظ يمثّل كيف بدأ ؟ ولكن حظُّ الجاحظ كان أحسنَ من حظِّ أبي حيان فكبر ومجد وأبو حيان نُسي وأُهمل ...

وفرق آخر وهو أن الجاحظ، لماّ حسن حظُّه ضحك، فاشتهر بالفكاهة الحلوة و النادرة اللطيفة . وأبو حيان لماّ ساء حظُّه بكى، والناس – عادة – يضحكون مع الضاحك ويهربون من الباكي. فقد أكثر أبو حيان من الشكوى حتَّى ملّ منه" مِسْكَوَيْه" في كتاب "الهوامل والشوامل" وقرعه عليه.

إنّ الزمان يذهب بغنى الغني وبجاه الوجيه ولا يبقى إلا آثارُ الأديب والعالِم. فَكَمْ مدح الشعراءُ أغنياء !، ثم ذهب الأغنياءُ وبقي الشعرُ. ومات أبو ابن حَزْم وكان وزيرا خطيرا، ومات "ابن حزم" الوزير أيضا، وبقي "ابنُ حزم" العالم الأديب. وللدنيا قِيمٌ بعد الوفاة غير قيمها في الحياة. فكم مات اسم أصحاب قصور ضخمة، وأسماء فخمة لم يذكرها الزمانُ وبقي اسمٌ كأبي حيان. وكان الزمان في هذا عادلا مطلقا فحرم بعد الوفاة من تمتّع في الحياة ومتع بالذكر الحسن من ساءه في حياته الزمن.

**من مقدمة البصائر والذخائر**

تحقيق أحمد أمين وأحمد صقر. القاهرة سنة 1953 ص ص ح–ي

## الأنشطة التأليفية

* بيّن كيف تتكامل نصوص كتاب الحيوان ونصوص الرسائل من حيث :

أ – المضامين والمسائل.

ب– منهجيات طرحها.

* تتناول النصوص الثلاثة الأخيرة المنهج العلمي عامة ودراسة الحيوان خاصة. استنتج المنهج واستدل على خصائصه بأمثلة.

يمكن أن تنجز هذا العمل في شكل جدول

* اختر بعض النصوص وقارن بين بنيتها الحجاجية.
* حدّد خصائص الكتابة عند الجاحظ .
* كوّن معجما تجمع فيه العبارات التي استعملها الجاحظ ولها علاقة بالعقل.
* أبد برأيك في القضايا التي عالجها الجاحظ.

## اختبـارات

**مقـال 1**

لم تكن غاية الجاحظ من كتبه نقل المعارف وتلقينها بل إيقاظ العقول وتعليمها منهجا في التفكير يهْديها.

بيّن إلى أيّ حدّ يصحّ هذا الرأي معتمدا ما درست من "الحيوان" و"الرسائل"

**البكالوريا جوان 2005** (دورة المراقبة)

**مقـال 2**

" تنَاولت الكتابة عند الجاحظ عالم الحيوان ومشاغِلَ الإنْسانَ تنَاوُلاً حكمته رؤية قوامُها العقلُ وغايتُها بناء تصوّر يُعْلي منْزلةَ الإنْسان في الوجُود."

حلّل هذا القول مبديا رأيك فيه استنادا إلى شواهد ممّا درست من آثار الجاحظ.

**البكالوريا جوان 2006** (دورة المراقبة)

**تحليـل نـص**

**مزاعم أصحاب الرياضة في علم الكلام**

ومن مظاهر صناعة الكلام عند أصحاب الصّناعات أنّ أصحاب الحساب والهندسة يزعمون أنّ سبيل الكلام سبيلُ اجتهاد الرأي، وسبيلُ صواب الحدس وفي طريق التقريبِ والتمويهِ، وأنّه ليس العلمُ إلا ما كان طبيعيا واضطراريا لا تـأويلَ له، ولا يحتمل معناه الوجوه المشتركة، ولا يتنازع ألفاظُه الحدودَ المتشابهةَ، ويزعمون أنه ليس بين علمهم بالشيء الواحدِ أنه شيءٌ واحدٌ وأنه غير صاحبه فرق في معنى الإتقان والاستبانة، وثلج الصدور والحكم بغاية الثقة.

فلو كان هذا المهندس الذي أبرم قضيته، وهذا الحاسب الذي قد شهر حكومته، نظر في الكلام بعقل صحيح وقريحة جيّدة، وطبيعة مناسبة، وعناية تامة، وأعوان صدق وقلة شواغل، وشهوة للعلم، ويقين بالإصابة، لكان تهيُّبُ الحكمِ أزينَ، والتوقّي أولى به. فكيف بِمَنْ لا يكون عرف من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصِدُ فيه والمتوسِّط له.

على أنّا ما وجدنا مهندسًا قط ولا رأينا حاسبا يقول ذلك إلاّ وهو ممّن لا يتوقّى سرَفَ القول، ولا يشفق من لائمة المحصلين، وقضيته قضية من قد عرف الحقائق، واستبان العواقب، ووزن الأمور كلّها وعجَم المعاني بأسرها، وعلم من أين وثق كلّ واثق، ومن أين غرّ كل مغرور.

على أنّهم يقرّون أنّ في الحساب ما لا يعلم، وأنّ في الهندسة ما لا يدرك ولا يُفهم. والمتكلمون لا يقرّون بذلك العجز في صناعتهم، وبذلك النقص في غرائزهم.

**رسائل الجاحظ الرسائل الكلامية**. قدم لها وبوّبها وشرحها الدكتور علي أبو ملحم منشورات دار مكتبة الهلال بيروت ط 1 1987

– حلّل هذا النصّ

# بيبليوغرافيا موجزة


**المصـادر**

**الجاحظ** : كتاب الحيوان. 7 أجزاء. تحقيق وشرح عبد السلام هارون. دار إحياء التراث العربي والمجمع العلمي العربي الإسلامي بيروت. ط3– 1969

**الجاحظ** : * رسائل الجاحظ. 4 أجزاء في مجلَّديْن. تحقيق عبد السلام هارون.

* رسائل الجاحظ جزآن. شرحها وقدّم لها وعلّق على حواشيها عبد.أ. مَهَنَّا دار الحداثة. بيروت. ط1/ 1988

* رسائل الجاحظ. 3 أجزاء قدم لها وبوّبها وشرحها الدكتور علي أبو ملحِم. دار مكتبة الهلال، بيروت ط1/1987 (الرسائل الأدبية – الرسائل الكلامية – الرسائل السياسية)

**المراجـع**

– شفيق جبري : الجاحظ معلّم العقل والأدب . القاهرة 1948.

– الأب فكتور شلحت اليسوعي : النزعة الكلاميّة في أسلوب الجاحظ. دار المعارف بمصر 1964.

– محمد عبد المنعم الخفاجي " أبو عثمان الجاحظ" دار الكتاب اللبناني. بيروت ط1/ 1973

– علي أبو ملحِم : المناحي الفلسفية عند الجاحظ. دار الطليعة بيروت 1980

– محمد اليعلاوي : الجاحظ مفكّرا إسلاميا (ضمن) أشتات في اللغة والأدب والنقد. دار الغرب الإسلامي. بيروت ط1/ 1992. ص ص7–19

– مجموعة من المؤلفين : كتاب أهمية نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم "كلية الآداب منوبة 1998 "

– طه عبد الرحمان : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء ط2/2000

– صالح بن رمضان : الرسائل الأدبية من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة (مشروع قراءة إنشائية ) جامعة منوبة تونس المجلد 47/2001

– عبد السلام عشير : عندما نتواصل نغير/ مقارنة تداولية معرفية لآليات التواصل والحجاج. إفريقيا الشرق/ المغرب 2006

– خليل أبو الحبّ : الجانب العلمي في كتاب الحيوان للجاحظ . مجلة المورد، المجلّد 19، العدد الأوّل: 1990 ص ص 70–76

– حمّادي صمّود : الوعي بالأجناس الأدبيّة في كتاب الحيوان للجاحظ (مجلّة) حوليات الجامعة التونسية. العدد 45، 2001 ص ص 199/229

– حبيب أعراب : مقال الحجاج والاستدلال الحجاجي. مجلة عالم الفكر عـ1دد المجلـد 30 سبتمبر 2001

– عبد الله البهلول : مقال بلاغة الجواب أو عندما يسأل الأديب. مجلة القلم. عدد 13/2006